

مباح الحياة

عنصر أصيل في الإصلاح الاجتماعي

بقلم الأديب الأستاذ سيد قطب

هذا بحث طريف في مباح الحياة التي تنفص المجتمع المصري . وقد استطلع الكاتب الفاضل أن يعين مكان الداء كما استطلع أن يصف الدواء في رشة وفطنة وذكا . ونحن نغف قراءنا بهذا البحث الطلل المنع الذي تطلب عليه روح الحظ والظيرة رجاء أن يجدوا فيه علاجا لحالة الكتابة العامة التي تشي مجتمعا المصري المحرور

نحن في حاجة الى حفظ كبير من الفرع ، لأننا في حاجة الى حفظ كبير من الحياة والى حفظ كبير من سلامة الفطرة وصحة الشعور ، وهما أكبر مقومات الحياة . وحظنا نحن المصريين من الحياة الحقيقية ضئيل ، لأن حفظنا من الفرع ومن المباح الفردية والاجتماعية ضئيل .

ولنما يصح هذا القياس ، لأن الفرع الانساني ظاهرة نفسية وعقلية تقابل في الحيوان ظاهرة القفز والوثب ، وفي الطير ظاهرة المسققة والغناء ، وفي النبات ظاهرة التفتح والازدهار ، وهذه الظواهر جميعا دليل الحيوية والصحة في الأحياء .



ولكن أى أنواع الفرع نحن في حاجة اليه ؟

انه لا يعنينا الفرع الحيواني الذي مظهره التهريج ، ولا فرح اليا من الذي مظهره المجنون . وإنما أسمينا هاتين الظاهرتين فرحا من قبيل التجوز في التعبير . فالفرح — كما قلت — ظاهرة نفسية وعقلية . وبهذا نخرج من الحساب ذلك التهريج الظاهر في حياتنا العامة ،

كما يتفرج من الحساب ذلك المجنون الظاهر في حياتنا الفردية ، لأن عمل النفس والعقل فيهما ضئيل ، ولأنهما يختلفان في مبعثهما اختلافا جوهريا عن مبعث الفرح الصحيح ، ويلبسان من منبع أبعد ما يكون عن نبهه الرائق المعين .

ينبع الفرح الانساني من الطلاقة والتحرر من قيود الحاجة والضرورة ، هذه القيود التي تقرب الانسان من الحيوان في خضوعه للضرورات ، وينبعث من الشعور بالاكفاء وبعنصر زائد عن هذا الاكفاء ، وهو الفضلة المندخرة من القوى الداخلية في النفس بعد أن ينفق منها الفرد أو الجماعة ما يقوم بالحاجات والضرورات .

فن أين ينبع التهرج وينبعث المجنون ؟

ينبع التهرج في حياتنا وحياة الشعوب والأفراد من منبع الضغط على اختلاف ألوانه ، لا من منبع الحرية ، فهو ثمرة للكبت لا للطلاقة . وينبعث المجنون سخطا على الحياة لا رضى عنها ، واستهانة بها لا اعترازا بقيمتها ، واصغارا لشأن الكون لا إكبارا لما فيه من معة أو جمال .



نحن في حاجة اذن الى حظ من الفرح الانساني الراق ، لأننا في حاجة الى حظ من الحياة الصادقة والتطورة السليمة .

ولكن أهذا كل ما ينقصنا من ألوان الفرح ؟

الواقع أن حظنا كذلك ضئيل حتى من الفرح الحيواني الذي يدل على سلامة البنية وصحة الشعور واكتفاء الروح . والحرمان من هذا اللون ربما كان أخطر وأوغل في العلة ، لأننا بهذا الوضع لا نرتقي في سلم الصحة حتى إلى مرتبة الحيوان !



والآن . لسأل كل منا نفسه : كم مرة يضحك في اليوم أو الأسبوع أو الشهر ضحكة مشرفة مبعثها الشعور بالفيض النفسى الزاخر وبالطلاقة الحرة والتخفف من قيود الحياة ؟

بل لسأل نفسه : كم مرة يضحك في اليوم أو الأسبوع أو الشهر ، ضحكة مبعثها الحيوية الجسمية والشعور براحة البدن واكتفائه وخلوه من العوائق والمنغصات ؟

ثم تعالوا ندخل البيت المصرى فى المدينة ، فماذا نحن واجدون فيه من مباح الحياة المنزلية ، ومن مظاهر المرح المشتركة ، بل من مظاهر المشاركة الوجدانية فى أبسط صورها بين أفراد المنزل الواحد ؟

ولنذهب الى الريف الحزين المظلم الأرجاء ولنبحث عن مظاهر الفرح هناك : فى أى مكان . أنحن واجدون منها شيئا ولا سيما فى هذا الزمان ؟

لقد كانت للريف المصرى مباح كثيرة قبل نصف قرن ، ولقد بقى منها أنر الى ربح قرن ، وكان أهمها حفلات سباق الخيل وألعاب العشا ، ومواسم الحصاد ، كما كان الريف يعد له متفصا فى ليلالى رمضان الساهرة وفى الموالد المنيرة . أما اليوم فقد طمس الفقر والإعباء على كل مظاهر الابتهاج .

ثم لننظر بعد المدى بين مباح عيد الميلاد وعيد رأس السنة الميلادية عند القليلة من الأجانب الحاليين فى ديارنا وبين مباح أعيادنا التى تشترك فيها الملايين ، ان صح ان هناك مباح فى هذه الأعياد .

ولنوازن بين مباح الحياة المنزلية فى البيوت القليلة المتناثرة بيننا للزلاء وبين ذلك الكد المكثوم ، والنفرة الموحشة فى أرجاء بيوتنا المصرية الكثيرة .

اننا نقضى أعيادنا على المقاهى نتطلع فى شبه زهول للرائحات والغاديات . والعيد القومى الوحيد الذى نحاول أن نبتهج به وهو عيد الربيع "شم النسيم" نهبط فيه الى الاستهتار الماكن لأننا لم نعرف بعد كيف نفرح فرح الآدميين .

ان هؤلاء الافرنج يفرحون كثيرا لأنهم يعملون كثيرا وينتجون كثيرا ويشعرون بقيمة الحياة فيتطلعون الى مثل عليا تملأ فراغها وترفع مستواها ويحققون كثيرا من هذه المثل . . . يفرحون أما نحن فلا نفرح لأننا لا نعمل ، واذا عملنا فبغير حمية ولا إقبال ولنغير ما غاية مرسومة ولا ايمان بالحياة .

وكما يصح هذا القول وذاك يصح عكسهما تماما : فهم يعملون بعد لأنهم يفرحون ، ونحن نعمل فى سأم لأننا مكتئبون .

ويوم نعرف كيف نفرح فرحا حقيقيا سنعرف كذلك كيف نعمل عملا جديا فنذكر يومئذ قيمة الحياة ولذة الطموح .

لهذه الكتابة الغاشية في مصر أسباب كثيرة أهمها : الوراثة التاريخية وسوء فهم التعاليم الدينية ، وفقدان الاستقلال حقبة طويلة ، ومحطة الإذاعة اللاسلكية ، والفقر والظلام ، واحتجاب المرأة الفاضلة عن المجتمع المصري ، وطابع الحزن الذي يغلب على الحاننا وأغانينا والتفكك العائلي والاجتماعي ونقص وسائل التسلية .

وبعض هذه الأسباب لا حياة لنا فيه ، ولكن بعضها من صنع أيدينا وفي استطاعتنا إزالته أو تخفيفه ، فلنأخذ في شرح هذه الأسباب شرحا مختصرا إذ كان الحدث المنفصل يستغرق رسالة مطولة ، لا فصلا في مجلة .



الميل الى الحزن والاسترسال فيه ظاهرة بارزة في حياة مصر القديمة ، فالتفجع على المولى وطول مدة الحزن وشناعة مظاهره وبروز معالم الحداد ، كل هذه حالات ملموسة في حياة أجدادنا زمن الفراغة وقد ورثناها عنهم ولا زلنا نعاك هذه الأحران في الريف طلكا كلما مابت لنا عزيز ، ونستمع بالنادبات على إذكاء النوعة والأشئ في النفوس ، ونبالغ في لبس السواد ونحافظ على كل ما يذكرنا بأننا في محزنة وفي كل ما يسبق علينا لباس الشجن والكتابة كأننا راغبون رغبة مقصودة في هذا الشعور .

ثم نعود الى احتفالات القدماء بالاعیاد والمواسم ، والى أغانيهم في هذه الاحتفالات ، فنرى أنهم يحرمون على تذكر الموت والموتى كلما استخفهم عوامل الفرح أو خافوا أن يستخفهم ، فمع عظيمة الاحتفال بالحياة في "طيبة الأحياء" إبان الاعیاد لم يكونوا ينسون أن يحتفلوا عقبها بالموت في "طيبة الأموات" على الضفة الأخرى للنيل ، وهكذا كانت أناشيدهم بالفرح ، لا تغلو من شارة للموت ومن طابع للحزن .

وها نحن أولاء على ستمهم نزور موتانا في الأعياد ونحيي أول أيام النید بين القبور ! وما من شك أن لهذه الوراثة أثرها في اكتئابنا الحزني الذي قد تخفيه ضحكة الاستهتار أو ضحكة التسلية التي تراها في الوجوه فتحسبها تابع من منبع الفرح الأصيل .

ولكننا أسوأ حالا من القدماء ، فقد كان لهم من العزة القومية ومن فتوة النشوء ما يجعل فرحهم ولو في ساعات قصيرة فرحا حقيقيا ، أما نحن فقد ورثنا الكتابة ولم نرث الشبي الآخر في حياة القدماء .



ومصر الإسلامية التي قامت على مصر الفرعونية لم تنس أديانها وتقاليدها القديمة وقد اندس الكثير من القديم في الجديد وضاع في طياته ، ولكنه ترك أثرا بارزا ، ومن هنا أسانا فهم بعض التعاليم الدينية الإسلامية متأثرين بطبيعتنا الأصلية واختزنا منها ما يناسب هوى هذه الطبيعة ، مغفلين الجانب الآخر من تلك التعاليم .

فالدين في وهما لا يناسب المرح والبهجة ، ولا يتفق مع الاحتفال بالحياة والتهنؤ لها والاعتداد بها . ولكننا لا نلتق إلا الى قول القرآن " ولا تنس نصيبك من الدنيا " وقوله " يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد " .

وما كان للقرآن ؛ وهو دستور اجتماعي للحياة أولا وقبل كل شيء ؛ أن يفضل مثل هذه الدعوة إلى التمتع بالحياة والاحتفال بزيتها بجانب دعوته إلى عدم الاسراف في الاعتداد بها . لأن أهم ظاهرة في الإسلام هي الاعتدال والموازنة بين العناصر المختلفة الضرورية للحياة الفاضلة .

على أن الإسلام ليس ديناً جامداً ، إنما هو دين مرن يحتمل السير به في مختلف الأحوال . فإذا كان هذا الدين في نشأته قد واجه قوما يعترفون بأبائهم واجدادهم ويتفانرون بأموالهم ووجاهتهم فأصغر من شأن هذه المظاهر ، ودعا دعوته إلى تصغير الحياة الدنيا ليوجد الاعتدال والاتزان في نفوسهم ، ويهيئها للتغير والهدى الذي جاءهم به فتحن اليوم في دور قد استنها فيه بالحياة وأصغرنا قيمتها ، فأصبحنا بحاجة إلى قسط كبير من احترامها لترفع بها عن مستوى الاستهتار الذي تلج فيه ، ولنقوى أنفسنا في عصر القوة وإلا فإذا يدعونا إلى العمل والجهد إذا اختقرنا الحياة واستصغرنا شأنها ؟

وهذه تبعة ثقيلة ملقاة على عاتق رجال الدين وعلى الوعاظ منهم بشكل خاص ، فمساهم يغيرون نعمة الأسى المصطنع ، وينسون مؤقنا ازدياء الحياة والخط من شأنها في هذه الظروف .

ومتى أحببنا الحياة واحترمناها وجدنا في نفوسنا عناصر كثيرة للفرح الانساني الأصيل .



ولم تكن الوراثة التاريخية والتقاليد لترك مثل هذا الأثر العميق في نفوسنا ؛ لو لم تكن الحياة علينا لسبيين أساسيين ، هما فقدان الاستقلال ودحا طويلا من الزمان ، وسوء الحكم الذي ترتب على هذا فقدان . فلقد كان الأول آفة العزة القومية ، وكان الثاني آفة العزة الفردية ، ومتى سلب الانسان نعمة الشعور بهاتين العزتين فقد سلب نعمة الحياة الطليقة وانحط مستواه النفسي إلى ما يقرب من عالم الحيوان .

وقتي قلنا إن الفرح الانساني ينبع من الطلاقة والتحرر من القيود ، أدركنا ما سبق
للصري من هذا الفرح بعد أن يذكر أنه فقد احترامه الدولي واحترامه الفردى حتما طويلا من
الزمان . وقد نبعت النكتة المصرية المشهورة من منبع الكبت والضغط ، للتنفيس والترويح
عن النفس المكبوتة من كل جانب ، وكانت في أحيان كثيرة نوعا من المقاومة للحكام ، إذ كان
الشعب المغلوب على أمره يتسلى بتوجيه النكات إلى حكامه ، ويرضى نفسه بعض الارضاء
بهذه المقاومة المأمونة .

فليست النكتة المصرية إذن إلا مظهرا للكمد المكتوم لا للفرح الطليق .

والآن وقد زال هذان السببان — والحمد لله — فيجب أن نجتهد في تمكين الاعتزاز
بالاستقلال والحرية الشخصية ما استطعنا ، لنستطيع أن نحى هذه النفوس الذابلة ، ونطلقها
تفرح ومرح الأحرار من الآدميين .



ولقد ساعد هذه العوامل المتقدمة ومكن لها عامل آخر أشمل منها جميعا ذلك هو الفقر
الذى ينوء به كاهل ثمانين في المائة على الأقل من أفراد الشعب ولن يجتمع الفقر والفرح رغم
كل ما يحاول الشعراء أن يخيلوه من سعادة في حياة الفقراء .

الفقر كمد وحزن ومدعاة إلى الكمد والحزن . هذه حقيقة لا سبيل إلى المكابرة فيها ، ولن
يستطيع الفقير أن يخلو إلى الفرح وهو جائع مريض مكدود ، فالحيوان نفسه لا يرتع أو يقفز
وبطنه خواء .

فكل محاولة لإغناء هذا الشعب ومقاومة حدة هذا الفقر الاسود الذى يفساه هى محاولة
في بث عوامل الفرح في النفوس ومقاومة هذه الكآبة الغاشية .

وتتصل بالفقر في الريف أو تنشأ عنه ظاهرة الظلام . فالانارة في القرية المصرية ضعيفة
جدا أو هى في حكم العدم سواء في المنازل أو الطرقات ، إذ تحيم الظلمة الحالكة منذ غروب
الشمس ، بل تسدل حجابها على كثير من المنازل قبل غروبها نظرا لقلّة النوافذ في هذه الكهوف
التي يأوى إليها الأحياء كالأموات .

وقد لا يلتفت الكثيرون إلى علاقة النور بالحالات النفسية ، ولكن العلاقة مع هذا
أوضح من أن تذكر ، فالنور من الناحية الفيسيولوجية يبه خلايا الجسم وينشطه ، والضحك
ظاهرة من ظواهر النشاط النفسى والجسمى بطبيعة الحال .

هذه الظلمة التي تخيم على الريف تحمل في طياتها الكتابة وشعور الانقباض والانكماش ، فإذا انفرجت قليلا في أيام رمضان وفي الموالد والأفراح التي يكثر فيها النور وتوقد المصابيح الكبيرة ، انطلق الأهليون يتقبلون في القرية وانفرجت أسرارهم ، وتغيرت حالتهم النفسية تغيرا محسوسا .

فتحاول الحكومة أن تنشر النور في القرية وأن تبدد هذه الظلمة قدر ما تستطيع بوضع مصابيح البترول الكبيرة في الشوارع . وكل مبلغ تنفقه في هذا السبيل لن يضع هباء ، لأنه سيدخل السرور والنشاط على نفوس الملايين .

وما من شك في أن الحكومة تعلم أن هذا النور يقلل من الجرائم ويعوضها اضعاف ما ستفقه من قروش .



وسيعجب الكثيرون — ولعلهم سيضحكون أيضا — حين أقول لهم أن محطة الإذاعة اللاسلكية جاءت سببا من أسباب الغم والكتابة في الحياة المصرية ؛ فأننا أفسر لهم هذا اللفز العجيب .

كان لاحتجاب المرأة أثره في الأغاني والموسيقى المصرية . وكان أمرا سببا ولا ريب ، فقد عادت الموسيقى وعاد الغناء ترديدا لصوت الفرزة الحبيس ، ونداء للجنس المكبوت . وباليته بقي نداء الحيوان السليم للحيوان السليم ، بل انحط الى درجة النداء الجنسي المريض المهزول المصطنع الذي ينقصه حتى جمال الصدق في تصوير غريزة الحيوان السليم .

وكان هذا الشر قاصرا على حفلات الغناء ، وعلى الاسطوانات يذيعها الحاكي في دائرة ضيقة ، فلما أنشئت محطة الإذاعة وصل النداء الى كل بيت وكل سمع ، وتغالت أنات المرضى التي يذيعها المطربون وتذيعها المطربات فوصلت الى كل حجرة وكل أذن ، وتغنى بها الجميع فزادتهم مرضا على ما هم فيه من توعك وإضمحلال .

ليس لدينا قطعة موسيقية واحدة ولا أغنية مصرية واحدة حتى اليوم تحمل طابع الصحة وترتفع عن نداء الجنس المريض .

وأكثر من ذلك أنه ليس لدينا حنجرة واحدة مستعدة لإخراج نبرة الفرح أو نبرة النشاط والصحة إذا عزت علينا نبرة السمو والتعاليق ، ولم يبق عندنا من المغنين من يصاح لترديد نعمة واحدة من نعمات الإحساس السليم . وطالما شكونا التأليف والتلحين ، ولكننا لم نلتفت الى ظاهرة عجيبة في أصوات مطربينا ومطرباتنا وهي أن حناجرهم وحناجرهن لم تعد صالحة إلا لإخراج الذبرة الكثيبة والصوت الحزين .

وأشد ملاحظت هذا في الأغاني الوطنية التي رجت في هذه الأيام ، وفي أناشيد أفراح الزفاف الملكية وأناشيد الأعياد . فالألغاز والمعاني في الأولى قوية صاخبة ، وفي الثانية ضاحكة باسمية ، ولكنها خرجت من حناجر المطربين والمطربات مينة هامة حزينة ، تقطر منها الدموع وتشيع فيها الآات ويطل منها الوجع الدفين .

وهذه نكبة على روح الفرح والبشر لأن الموسيقى والغناء يفعلان في الكيان النفسى مالا تفعله جميع التعاليم .



وننتقل الآن الى سبب كامن في بيوتنا ومجتمعاتنا ، ذلك هو التفكك الملحوظ بين أفراد الأسرة الواحدة وبين أفراد الأمة كلها . وساعة واحدة يقضيها المرء في بيت افرنجى يراقب عواطف الحب والمودة الواضحة بين أفراد البيت الواحد ، ويلاحظ مظاهر المشاركة الوجدانية واجتهاد كل فرد أن يدخل السرور على نفوس الآخرين بمحاكاة أو لعبة أو حركة ساعة واحدة تكفيه لإدراك ماقد حرمانا منه في بيوتنا . هذه البيوت المتفرقة الأجزاء المفككة الأوصال التي يهرب الكثيرون منها الى القهوة والنادى هروب اليائسين .

فإذا عدونا البيت الى المجتمع راعنا ذلك الانحلال وهذا التفتت من الأواصر الاجتماعية وظهور الأحاسيس الفردية على أحاسيس الجماعة . ولست أرى أن هذه مشكلة سهلة الحل فليحاول كل فرد منا أن يكون مبدئيا في بيته بتعاليم الأسرة الجديدة ؛ ولنختلط بالافرنج ما استطعنا ، ولنقرأ ما كتب في لغاتهم من وصف للبيت الافرنجى ومباهجه ، ثم لنحاول في صبر طويل محاكاةهم في إحياء بيوتنا وبث روح الفرح والنشاط والبهجة بين جدرانها ، ولعلنا نوفق بعد عمر طويل .

وما من شك أن وسائل التسلية في المجتمع منقوصة نقصانها في البيت ، وما دنا في طور نعتمد على الحكومة فيه اعتمادا كبيرا ، فلتحاول الحكومة ممثلة في وزارة الشؤون الاجتماعية أن تخلق وتنظم كثيرا من المواسم والمهرجانات الفرحة النشيطة . ولتضف الى الاحتفال بالمولد والمحمل ووفاء النيل الاحتفال بمواسم أخرى ، فلتحتفل بعيد الربيع (شم السيم) وبموسم الحصاد ، وموسم جمع القطن على مثال ما تصنع بعض الممالك الأوربية . ولنظم مسابقات كثيرة للزوارق ومعارض الزهور .

ولتقم الى جانب وزارة الشؤون الاجتماعية هيئات أخرى ولجان تجعل من همها الإثارة من المباحث الاجتماعية والتجديد فيها والابتكار في كل مناسبة من مناسبات العام . حيث يتاح الاشتراك فيها لأكبر عدد ممكن من الشعب المحروم .

ولنذكر دائماً أن كل ابتسامة ترف على الشفاه ، وكل ضحكة ترن بها الحناجر ، إنما هي قطرات من الدم التي في عروق الأمة وصيحات الى العمل المنتج ودعوات الى السمو والطموح .

سيد قطب

-
- الحق كبير فلا تصغروه بالصغائر .
 - الأمية شلل الأمم ، الناس معها مقعدون وإن خيل إليك أنهم يعدون .
 - اعتراف الخاطئات استبسال ، وفرار من الاسترسال ، فانتشلوهن بفؤكم وأحيطوا بضعفهن من حاكمكم بقوة .
 - خف اليائس فإنه لا يخاف .
 - الخير فيه ثوابه وإن أبطأ ، والشرف فيه عقابه وقلما أخطأ .
 - أبى الله أن يتساوى عباده إلا في النوم والموت .
 - الأعمى من يرى بغير عينه ، والأصم من يسمع بغير أذنه .
 - لاسلطان على الذوق فيما يحب ويكره .
 - أصدقاء السياسة أعداء عند الرياسة .
 - اخذع من شئت إلا التارخ .

” من أسواق الذهب لشوقي “